على صخرة

في سيرى بشر

قصة مصرية : لمحمود كامل المحامي

« الجزيرة التي تبعد عن شاطئ سيدي بشر والتي ترى من بعيد وقد أحاطت بها مياه البحر ، صباح يوم من أيام الصيف سنة ١٩٣٨ . الجزيرة خالية الا من شاب ممتلق في ثوب البحر على أرضها وقد اتكأ برأسه على يديه مضمومتين تحتها . الشمس ترسل أشعتها المحرقة الى الجزيرة الخالية . يستيقظ الشاب من غفوته على صوت ذراعين تسبحان في الماء مقتربتين الى الجزيرة »

هو — (مغطياً جبينه ، واضعاً يده فوق عينيه ليحجب اشعة الشمس ويستطيع التدقيق الى وجه الفتاة التي عبرت البحر الذي يفصل بين الشاطئ والجزيرة سباحة) من ؟ حكمت !

هي — (تكون قد وصلت الى أرض الجزيرة ، ساقاها في الماء وجذعها الاعلى مستند على رمل الجزيرة ، ترفع بصرها اليه ، تشهق شهقة طويلة حادة) صبري

هو — كيف استطعت السباحة الى هنا ؟

هي — ماذا يدهشك في هذا ؟

هو — منذ ثلاثة أعوام ، في هذا المكان نفسه ، كنت لا تستطيعين النزول الى البحر الا اذا كنتُ الى جانبك

هي — لأني كنت أخاف من البحر

هو — ولكنك كنت تسبحين

هي — مطمئنة الى أن ذراعك ستنتشلني اذا غرقت

هو — ومتى تعلمت السباحة وحدك ؟

هي — عندما انفصلنا

هو — كيف ؟

هي — عرفت أني يجب ان اعتمد على ذراعي لأني فقدت ذراعيك فلم أجدهما

هو — (يطرق الى الارض ويفكر) أنا لا أذكر أننا وصلنا الى هذه الجزيرة

هي — ولكننا كنا دائماً نقف على الشاطىء ونتطر اليها من بعيد كأننا ننتظر اليوم الذي نستطيع ان نصل فيه اليها

هو — ألا تذكرين كيف كنا نصور لي ذلك اليوم؟

هي — أجل (بسر وجها)

هو — بم؟

هي — لأني وعدتك ان اعطيك القبلة الثانية في مكان ناء نكتشفه نحن

هو — وقد خيل الينا اذ ذاك ان هذا المكان قد انحسر عنه الماء ليكون ملتقانا الموعود

هي — ولكنك لم تشأ مع ذلك ان ترحمني بالسباحة طويلاً الى هنا

هو — مع اني كنت اعد الثواني الباقية على فوزي بالقبلة الثانية

هي — (تبرز رأسها في بطء) كانت قد انقضت اربعة اشهر على اول مرة التقينا فيها منفردين

هو — (مشيراً الى الارض وقد اشتدت ظلمة الليل) ها نحن اولاء نعود الى هذه الجزيرة المنسورة بالماء مساء الاربعاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٥

هي — (مشيرة الى الارض وقد اشتدت ظلمة الليل) ها نحن اولاء نعود الى هذه الجزيرة التي سبقت به الاقدار لقاءنا امام باب العمارة المقابلة لفندق التاسيوفال حيث تقطن حاشكة ثياب سيرتها . ثم حملتني في سيارتك الى خارج القاهرة

هو — فاجدك تذهب اليه لكي تقضي ساعة هادئة بعيدين عن أعين الناس الا جزيرة الشاي في حديقة الحيوان

هي — لقد حاول الخادم السوداني ان يسكب لنا الشاي بوشاور ولكني اشرت اليه ان يدع الاناء لي وقد خدمتك كما زلت اذكر جيداً عندما انتهت من سكب الشاي في قدحك ومددت انامل لكي التقط قطع السكر ترددت قليلاً لانك حصرت لي ان سألك (قطعة واحدة او قطعتين ؟) ولكنني لم أشأ . خيل إليّ اني لو فعلت لدل ذلك على اني حديثة عهد بسذاجتك فوضعت قطعة واحدة

هو — كما اني تعمدت ان ارفع (الاقطة) السكر لكي ادعك تضعين القطعة بيدك

هي — ولما هبط الظلام قمنا نسير في طرقات الحديقة على غير هدى كأننا نبحث عن هذا العالم

هو — لقد تمنيت أذ ذاك ان يطول ذلك الليل

هي — حتى يعثر علينا أهلنا ميتين

هو — أجل انني أذكر انك قلت لي ذلك . أمام قفص العصافير الزرق

هي — (تشيح بوجهها) — لا تذكرني بها

هو — (يشير كأنه لم يسمعها) العصافير التي اجتمعت في صف على سلك واحد عند ما رأتنا قد اقتربنا وجهنا بأعمدة قفصها كأنها أرادت تحيتنا

هي — (بتهيج صوتها) لا تسهب في اعادة ذكرى ذلك الموقف على سمعي ... ربه

هو — (لا يزال مستمراً) فلما التقى منقار اثنين متجاورين منها رأيتني أمد يدي وأقبض على يدك

هي — كفى . ارحمني !

هو — وعندئذ تقلبت حولك كأنك توحين الي بشيء ما . ولكنني تجاهلت وسألتك (لم تلفتين ؟) فأجبت في صوت هامس وانت تنظرين الى منقاري العصفورين المتلاقيين وقد ارتعشت زقزقة الباقين كأنها زغاريد منفشة (أخشى ان يرانا احد) فلم أنتظر حتى تمي جملتك وقبلتك للمرة الاولى وأنا أقول « تحشين وأنا معك »

« فترة صمت لا تسمع فيها الا نغمات امواج البحر الخافتة الجزيرة »

هي — في اليوم التالي تحدثت الي بالتليفون وطلبت الي أن أذهب الى ذلك المكان نفسه لأقرأ شيئاً كتبته رأيت أن تخبرني به

هو — هل ذهبت ؟

هي — أجل

هو — كنت قد انكرت أنك أضعتي

هي — لقد تجاوزت النفس التي يليق بها أن أعاند !

هو — ماذا وجدت

هي — (ترسم بأصبعها على رمل الشاطىء الجمل هذه الكلمات دون ان تنطق

هنا قبلتها للمرة الـ ...

هو — (يمسك بيدها السكين ثم يرسم الكلمة) أعرف ما سوف تكتبين ..

هي — لم تمنعني ؟

هو — (يرسم بأصبعه هذه الكلمة دون ان يمسها) (الثانية) !

هي — شرير !

هو — لم ؟

هي — لأنك تغريني بأن اقترف شيئاً لا يليق

هو — وهو ؟

هي — أن أخون رجلاً أجل اسمه

هو — (بسخرية) أتحبينه ؟

هي — لا . لقد أحببت مرة واحدة رجلاً لم ينل مني الا قبلة واحدة

هو — امام قفص الطيور

هي — في حديقة الحيوان

هو — ولكنك وعدته أن تهبه الثانية في هذا المكان

هي — اذا سبقنا اليه معاً ولكنني وصلت اليه وحدي

هو — رأيتني أسبح اليه فتبعتني

هي — (تتنهد) . من قال لك ؟ لو أني رأيتك لما أتيت

هو — شريرة !

هي — كيف ؟

هو — لانك أخبرتني منذ لحظة انك تحبون السير التي يليق فيها ان تعاشري

هي — (تنتزع يدها فجأة . ثم تضع يدها في جيبها تخرج خصلة من شعره . تلقيها على مكتبه) لم تقسو عليّ .

هو — (يضحك) !

هي — أجل اضحك . لأني رأيتك حقاً وتبعتك

هو — انك مازلت تلهين من شدة ما أرهقتك السباحة الى الجزيرة

هي — أتظن هذه المسافة سباحة للمرة الاولى

هو — أم تخشى الغرق ؟

هي — كنت واثقة بأنك ستنقذني لو أشرفت على الغرق

هو — أترين ان الامواج قد هاجت فجأة . تُرى ما كان يحدث لو أني سمعت صراخك ونزلت الى الماء ثم جرفتنا موجة عالية مخيفة كهذه الموجة ؟

هي — ألم تتمنى ذات يوم ان تكون في غابة مهجورة وألا يعثر علينا أحد الا ميتين

هو — (يرتجف جسمه) — لابد أنك تشعرين بالبرد هنا . (يلتفت حوله) لا شيء استطيع ان اضعه على جسمك العاري

هي — (تقترب منه ويحوطها بذراعه) ان جسمي يرتعد ولكنها ليست رعدة البرد

هو — أعرف انها ...

هو وهي (معاً) — رعدة الذكرى !

« فترة صمت طويلة يتشاغل فيها كل منهما بالارض الشاطئية التي تحت اقدامهما »

هو — ماذا ! أتبكين؟

هي — أجل . دعني أبكي قليلاً . ان هذا الماء الذي يلطم الارض تحت اقدامنا يوحي إليَّ بالبكاء

هو — أجل . كنت أريد أن أصارحك بهذا الشعور . لقد خيل إليَّ ان اكفاً خفية تحت سطح الماء تلطم الوجه محزناً على تلك الذكرى

هي — ترى ؟ لقد محا الماء ما رسمته أصابعي من كلمات على سطح الرمل . انهُ لا يغرنا على ان من حقنا نبش تلك الذكرى

هو — ولكني سأحداه . سأعيد كتابة تلك الكلمات ثم ليفعل بها ما يشاء في غيبتنا

هي — سأساعدك في كتابتها

هو — خصلك أجمل من خطي

هي — آه ! لقد تجاوزت انت أيضاً السن التي يليق فيها ان تتعلم . سيبقى ذلك طفلاً مكرت جداً خطي الذي كنت أكتب به رسائلي اليك !

هو — لقد حاولت ان ارد لك الرسائل اليك

هي — احتفظ بها كما هي فقد تكفل رسائلك . ان الله يشهد على ان غرامنا لم يتلوث قط . فلم نخشى بقاء تلك الرسائل ؟

هو — « يبدأ في رسم هذه الكلمات على الرمل » . (هنا تقابلنا مفردين للمرة الثانية)

هي — (ترسم على الكلمة الأخيرة !)

هو — أخشى أن تكوني قد تأخرت

هي — أجل . لقد الآن

هو — متسبحين ؟

هي — الى جانبك

هو — فاذا اقتربنا الى الشاطىء ؟

هي — ابتعد عني كأننا لم نلتق هنا

(فوق موجة عالية . في المسافة بين شاطىء سيدي بشر والجزيرة)

هي — اني اقوم بكل ابتعد عنك ولكن الموج يدفعني دفعاً اليك رباه ! اني خائفة . لقد اقتربنا من الشاطىء

هو — لا تخافي ... لن يرى اني الناس خارجاً من الماء معك . سأعود الى الجزيرة

هي — (مذعورة) وحدك ؟

هو — أجل

هي — كيف . هل جئت ؟

هو — لم ؟

هي — أنك تتعب

هو — اشعر بعد ان رأيتك اني اقوى من الف رجل

هي — ولكن ... لا ... لا تعد وحدك

هو — سأعود

هي — (باكية وصارخة مذعورة) أتوسل اليك . لا تعد

هو — لن يصيب أحد سوء ما دمنا وحيدين بتلك الجزيرة البعيدة

هي — سأقف على الشاطىء حتى أطمئن الى أنك وصلت سالماً ... الوداع

(ذهب سيدي بشر الى الجزيرة . فقضى ليلته هناك . وفي الصباح خرج في المظهر مكشوف الرأس ينظر الى الأفق عسى أن يرى شيئاً . وقد أمكنه أن يرى شيئاً يسعد به . وهو الخيال الذي في وجهها التعب . فقد رأى شبحاً داكناً قد وصل الى ارض الجزيرة فعلم أنه صاحب تلك الخيال طويلة والدموع تنهمر من عينيها بغزارة . وبعد قليل كانت سيارة تحملها الى منزلها بينما رتل من سيارات أخرى تجتاز طريق « الكورنيش »)